أم مارية الأثرية
د. آلاء ممدوح محمود
ليدبروا آياته

وَاتَّقُوا اللَّهَ	كثير من الناس يظن أنه إذا لبس الإحرام وتلبس بالنسك أنه صار بذلك تقيًا، والواقع أنه قد يقارف مع هذا الإحرام من موبقات تتعلق بالقلوب أو بالجوارح وقد يشعر بذلك وقد لا يشعر، فما يقوم بالقلب من الرياء والسمعة والعجب بالعمل من ذكر ومناسك وصلاة، والنفقة سواء نفقة السفر أو خدمة الحجيج ومساعدتهم، أو الصدقات، والجهود التي يبذلها في الحج، وكم وزع على هؤلاء الحجاج من الطعام والمياه والمشروبات المتنوعة إلى غير ذلك مما قد يقع في قلب الإنسان فيكون ذلك من جنايات القلب، وقد يبطل ذلك عمله. وهكذا أيضًا في أعمال الجوارح من إطلاق البصر وإطلاق اللسان، ولربما أيضًا إطلاق اليد بأذية الناس ودفعهم بسبب الزحام، بل وضربهم فهذا وغيره خلاف تقوى الله -تبارك وتعالى، ولذلك كثر الحديث عن التقوى في آيات الحج، وعن توابعها، ولوازمها، ومسبباتها من أجل أن يحفظ العبد حجه.
	ليست القضية أن نأتي بحج ونزيل الفرض من على كاهلنا، ونحذف أعمالاً شرَّعها الله -تبارك وتعالى- وأوجبها، ونتعدى حدوده من غير مبالاة. فبعض الناس يختصر المناسك فيذهب في آخر وقت الإمكان كالذهاب يوم عرفة للوقوف، ويرجع أول الناس ويترك رمي الجمار ويوكل من ينوب عنه في الرمي أو يجمع كل الرمي في اليوم الأول، ثم يأتي بحج مبتسر ويرجع قبل أن يرجع الناس، ولربما ترك الإنسان المبيت بمزدلفة والمبيت بمنى مع قدرته على ذلك، ووجود المكان، العبادة لا تكون بهذه الطريقة فهذا خلاف تقوى الله.
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ	{**وَاعْلَمُوا** } فالباعث على المخافة هو العلم؛ ولهذا جاء عن ابن مسعود قال: "العلم الخشية"، يعني: أن العلم يورث الخشية، فالعلم الصحيح الذي يقرب إلى الله، هو ما أورث الخشية منه، كالعلم بأسماء الله وصفاته، وفهم وتدبر كلام الله، أما العلم الذي لا يزيد الإنسان خشية، وإنما يزيده بعدًا وغفلة وإعراضًا وتيهًا، فهذا من العلوم التي لا تنفع. العلم بشدة عقابه -تبارك وتعالى- من العلوم النافعة المطلوبة، فقد أمر الله -تبارك وتعالى- به خاصة، فوجود هذا في خلد الإنسان، وقلبه بحيث أن يكون معلومًا له يجعله يترك معصيته، ويفعل

	طاعته، وما أمره به، ويكون ممتثلاً، وعلى حال مرضية. وهنا لفتة ... اظهر في موضع يصح فيه الإضمار، يعني لم يقل: واتقوا الله، واعلموا أنه شديد العقاب، فجاء الاسم مظهرًا في جملتين، ليفيد تربية المهابة ومراقبة الله -تبارك وتعالى- في حدوده وتشريعاته التي شرعها.
هذه الآية هي أطول آيات الحج، وذكرت التيسير، ومختومة بقوله: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} فدلّ على أن التيسير ليس بالتشهي، وأن شرائع الله -تبارك وتعالى- ليست بأذواق الناس، وأمزجتهم، فيتخيرون منها ما يوافق أهواءهم، ويتركون ما عدا ذلك، بل إن شرائعه يجب أن تلتزم، وأن تؤدى على الوجه الذي شرَّعه -جل جلاله وتقدست أسماؤه. فلايصح أن يقول الحاج سأقف بعرفة ولن أذهب أيام منى وأبيت في الخيام، أو أن الحر شديد وهو يستطيع أن يذهب لرمي الجمار فيجعل غيره ينوب عنه في الرمي.	

{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197) }

"التفسير الإجمالي وترابط الآيات"

لما أمر بإتمام الحج والعمرة لله -تبارك وتعالى، وذكر الأحكام المتصلة بالحج، ذكر في هذه الآية ميقاته، فقال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ} أي يقع الحج في أشهر يعلمها العرب منذ عهد إبراهيم عليه السلام، وجاء الإسلام مقرًا بذلك وهذه الأشهر هي: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة.

{فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ} أي: أحرم به، وعبر بلفظ الفرض: لأن الشروع في الحج يصيره فرضا، ولو كان نفلا، والمعنى: وأوجب الحج على نفسه بالشروع فيه.

ثم بين محظورات الإحرام فقال تعالى: {فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه، من الرفث وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، والفسوق وهو الخروج عن طاعة الله وفعل المعاصي، والجدال وهو: المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة، فكل هذا فيه خروج عن المقصد الأسمى من الحج وهو التطهر والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من العبادات والصالحات، والتنزه عن مقارفة السيئات والمعاصي، فإنه بذلك يكون مبرورًا ليس له جزاء إلا الجنة كما قال النبي: {من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه}.

ولما بين الله التقرب إليه بترك المعاصي، أردفه بالأمر بفعل الأوامر والتحلي بالطاعات والقربات، ولهذا قال تعالى: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ} أتى بـ "مِن "التنصيص على العموم، فكل خير وقربة وعبادة من صلاة، وصيام، وصدقة، وطواف، وإحسان قولي وفعلي فإن الله به عليم.

ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك فقال{وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} فأمرهم بالزاد الحسي من طعام وشراب ونفقة لأن فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم، سؤالا واستشرافا، وفي الإكثار منه نفع

وإعانة للمسافرين، وزيادة قربة لرب العالمين. ثم أرشدهم إلى الزاد الحقيقي المعنوي المستمر نفعه لصاحبه، في دنياه، وأخراه، وهو زاد التقوى من الأعمال الصالحة الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة، وأجل نعيم دائم أبدا، ومن ترك هذا الزاد، فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين. ثم أمر بها أولي الألباب لأنهم هم الذين يحققون ذلك ويأتمرون به فقال: {وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ} أي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل، وفساد الرأي.
سبب نزول قوله تعالى: { وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}: أن قومًا من أهل اليمن كانوا يأتون إلى الحج بغير زاد، ويقولون: نحن المتوكلون، وإذا صاروا إلى مكة سألوا الناس، فأنزل الله هذه الآية مبينًا أن هذا خلاف التوكل، وأن الشريعة تدعو أهل الإيمان لفعل الأسباب، التي يكون بها غناهم عن سؤال الناس، والافتقار إليهم، فيحفظ الإنسان مروءته، وكرامته.

هداية .... وتدبر

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ	الحج هو العبادة الوحيدة التي حُدد لها أشهر، مع أن الإنسان يمكن أن يأتي بالحج في ثلاثة أيام، أو أربعة أيام، لكن لما كانت هذه فريضة العمر، ويأتيها الناس من كل فج عميق، ومن نواحي بعيدة، فيأتون ويمكثون في بيت الله -تبارك وتعالى- قبل الحج وبعده، وسع الله -تبارك وتعالى- لهم فيه، فكان في شهرين وعشرة أيام.
	فضل الله ولطفه بعباده أن تختم السنة الهجرية بهذه العبادة العظيمة التي فيها تكفير الذنوب والمعاصي كما قال النبي: من حج لله فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه}، وقال: "والحج المبرور ليس له جزاء إلى الجنة"، ومن لم يحج فصيام عرفة يكفر سنة ماضية، وسنة آتية. فأين الذين يحتفلون بعيد رأس السنة ويتشبهون بعباد الصليب، الذي يقولون: بأن ربهم ثلاثة، وهذه الثلاثة تمثل إلهًا واحدًا؟!،

	فنقول لهم أن بداية السنة الهجرية شهر حرام يستحب فيه الصيام، وفيه يوم عاشوراء، ونهايتها عبادة عظيمة وفيها صيام يوم عرفة، فعجبًا من يستعيض عن هذا الهدى الكامل، ويتبع من وصفهم الله بالضلال، فقال: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} [سورة الفاتحة:7].
فَلَا رَفَثَ	النهي عن اتيان القبيح قولًا وفعلًا سواء كان الجماع ومقدماته، وسواء كان ذلك مع من يحل له كامرأته، أو من لا يحل له، كما لو كان يتواصل مع امرأة بالحرام.
	جاء بصيغة النفي، وهو مضمن معنى النهي، يعني لا ترفثوا، وكأن هذه قضايا مفروغ منها، وأمر مقرّر، عليك أن تستجيب وتمتثل.
وَلا فُسُوقَ	الفسوق يدخل به جميع أنواع المعاصي المتعلقة باللسان، أو الجوارح، أو القلب، فالتي بالقلب كالكبر، واحتقار الناس، والعجب بالأعمال الذي يبطلها ويحبطها، والرياء والسمعة الذي هو من الشرك، وأما معاصي اللسان: فالكذب والغيبة، والسخرية والتندر بالناس وازدرائهم كالتعليق على الثياب أو الشكل أو طريقة الكلام، والتفكه بذكر جهالاتهم وحماقاتهم، وما شاهده من مزاولاتهم في الحج كمن يقول سمعت رجل من بلد كذا يقول في دعاءه كذا ويضحك، وكذلك النظر إلى الحرام، سواء كان في جهاز معه، أو كان ذلك في الغاديات الرائحات في فجاج منى، أو في غير ذلك من المواضع، والله قال عن الحرم: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الحج:25]
وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ	الجدال المذموم الذي يورث الكراهية والنفرة والضغائن، وتفرق القلوب، فهذا لا موضع له لا في الحج، ولا في غير الحج، لكنه في الحج يكون النهي عنه أشد وأعظم كما قال ابن مفلح -رحمه الله- في الآداب الشرعية: "فلو كان في الملاحاة خير لما كانت سببًا لنسيانها -أي ليلة القدر-". وكثيرًا ما يغفل الناس عنه في حجهم وعمرتهم، يذهب كثيرون في مثل هذه الأوقات إلى العمرة، ولكن ربما يجادل في كل شيء، يجادل عند الحلاق، وفي الفندق، وإذا أراد أن يشتري، ويجادل صاحب الأجرة، وفي المطار، ويجادل الذي يحمل الحقائب، والذين يخدمونه في نزله، إذا تأخروا أو أبطأوا،

	ويجادل الرفقة الذين معه في كل شيء، فهو يلبس إحرامه، ولكنه أيضًا قد تلفع بألوان المخالفات. والجدال لا يكاد يُذكر في القرآن إلا على سبيل الذم غالبًا،كقوله: {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ} [سورة الرعد:13] ، حتى قال بعض أهل العلم: الجدال أصله مأخوذ من الجدالة، وهي الأرض الصلبة؛ وذلك أن الجدال يحصل فيه ما يحصل من حضور النفوس، وطلب حظوظها، من الانتصار لها، والغضب من أجلها، وما أشبه ذلك، وما يؤثره ذلك من المنافرة والتباغض والتباعد، والشريعة تأمر أهل الإيمان بأن يكونوا مجتمعين متحابين قال تعالى: { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا} [سورة آل عمران:103].
	ينبغي على العبد في حال الإحرام أن يبتعد عن كل ما يفرق قلبه؛ ولهذا نهي عن الجدال لما يحصل فيه من تشويش الفكر، فيكون قلبه حاضرًا للعبادة، والاتصال بالله -تبارك وتعالى، وأن يؤدي هذه المناسك بقلب حاضر، فلا يكون تطوافه في هذه المناسك من غير حضور قلب، فيكون جافًا.
وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ	**إذا نهى الله عن شيء أمر الناس بما يكون فيه صلاحهم ونفعهم** النفوس خلقت للفعل، ولم تخلق للترك، فالترك مقصود لغيره، فلا بد من عمارة القلوب والجوارح بالإيمان، والعمل الصالح، وأما الترك فهو من باب التخلية؛ ولذلك لا يحسن في التربية أن يُركز المربي على النهي والمنع دائمًا، وإنما يحُث الناس على ما فيه نفعهم وصلاحهم، وينهاهم عما يضرهم، فلا بد من النهي، لكن لا يكون ذلك مقتصرًا عليه. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} بالمثال يتضح المقال: عندما تربي ابنك استخدم النهي عن الفعل بطريقة طلب الفعل بطريقة جيدة مثلا: عد مبكرًا إلى البيت لأنك لو تأخرت لن يكون لك وقت لترتاح فيه وتستجم".
	قال بعض أهل العلم: بأن الخادم متى علم أن مخدومه مطلع عليه، كان أحرص على العمل، ويخلص ويجد فيه؛ وكذلك

	حينما يقول الرئيس لمرؤوسه: الأعمال والجهود التي تبذلها معلومة لدي، فإن هذا يبعث الطمأنينة في نفسه، ويزيده جدًا واجتهادًا، فهو لا يُهضم، ولا يضيع من حقه وجهده شيء، فكيف بعلم الله وإحاطته؟!. ولهذا قال: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ} فإذا استشعر الحاج أن أعماله الصالحة من طواف وسعي وذكر ووقوف بعرفة، ومبيت بمزدلفة، ورمي الجمار، وما يحتف به من النفقات، وألوان التقربات إلى الله -تبارك وتعالى- وما يناله ويحصل له من الألم والتعب والمشقات فالله يعلمها، هان عليه ما يبذل من المال، بل يلتذ بذلك كله، فلا يرى الله -تبارك وتعالى- منه ما لا يليق من التذمر والتسخط، والتحسر على ما أنفقه في هذا السبيل، وأن يستكثر ذلك، ولو أن الإنسان بقي على هذه الحال لحج حجًا في غاية الإتقان والضبط في العمل، من حيث اتباع السنة، والعمل المشروع، ولم يحصل من إخلال وتجاوز لحدود الله.
	البعد عن الرياء والسمعة فالعبد اذا استشعر بعلم الله، فلن يتعلق أبدًا بالناس، وينظر إلى مدحهم، فيحج ويمشي في المناسك، ويتنقل فيها، وهو يصور ويرسل الصور ليقال: فلان حاج، يرفع يديه ويدعو ويأمر من يصور، فيكون ذلك مخلاً بعمله، وقد يفسد نيته وقصده، والأعمال بالنيات.
	خص الخير في قوله: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ} ولم يقل: وما تفعلوا من شيء يعلمه الله، للمزيد من الحث على فعل الخير، فذكر أشرف الأمرين، وإلا فالله -تبارك وتعالى- يعلم ما يصدر عن الإنسان من أعمال السوء، وهذا من لطفه -تبارك وتعالى- بعباده.
	و(خير) نكرة في سياق الشرط، فتفيد العموم، فإذا سبقت بـ(من) {مِنْ خَيْرٍ} فإن ذلك يجعلها نصًا صريحًا في العموم، فتشمل أي خير، فيدخل في هذا الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة القلبية من الإخلاص والخوف والرجاء.
وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ	**الإستغناء الكامل بالله، وعدم التعلق بالمخلوق** إبطال ما كان يفعله البعض في حجهم من عدم التزود، وذلك يكون قطعًا لتعلق القلب بالمخلوقين أن يعطوه أن يمنحوه، وأن

التَّقْوَى	يحسنوا إليه، ونحو ذلك، وقد بايع النبي ﷺ بعض أصحابه ألا يسألوا أحدًا من الناس شيئًا، حتى كان السوط يسقط من أحدهم فلا يقول لصاحبه: ناولنيه، وهذا هو الاستغناء الكامل عن الناس
	كلنا مسافر إلى الله، وأعمالنا التي نحملها هي الأزواد، فالذي يعمل الأعمال الصالحة يجد ذلك عند الله، والذي يعلم الأعمال السيئة يجد ذلك عند الله، فينبغي على العبد أن يبادر ويتوب ويستغفر ويجدد العهد مع الله -تبارك وتعالى، ويعمل ما استطاع بطاعته ويتقيه، فقد يرحل في أي لحظة، ولا يدري الإنسان متى سيموت؟! فالعمل الصالح، والتقرب إلى الله بجميع أنواعه في الحج: متأكد ومطلوب، فالحاج يحتاج إلى أن يتزود ما استطاع، لا أن يتخفف من الأعمال الصالحة. فمن الناس من يريد أن يحج بأقل كلفة، سواءً كانت مادية (من المال)، أو من الأعمال التي يعملها، فيسأل عن الشيء المجزئ فقط، وتقضى الأوقات الطويلة في أفضل المواسم، وأشرف المواسم، والبقاع بأحاديث قد لا تنفعه، بل قد تضره، ويُقضى زمان طويل بالنوم والكسل عن الطاعة، ويهتم بالمطاعم والمشارب، ولكن ذلك لا يحقق لهم الطمأنينة والراحة والسكون، وإنما تبقى أرواحهم جائعة، وتبقى صدورهم في حال من الوحشة والضيق، والسبب هو أنهم اعتنوا بنوع من الزاد للأجسام، وتركوا الأرواح جائعة مقفرة من غير زاد. قال رجل ليونس بن عبيد -رحمه الله: أوصني، فقال له: اتق الله، فمن اتقى الله فلا وحشة عليه {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ} فإذا سئل: ما خير الزاد؟ فيقال: التقوى. ليس خير الزاد هو ألوان وأصناف المطعوم من أنواع المستلذات، وليس خير الزاد هو ما يكتنزه الإنسان من الأموال، فإنه لا يأخذ معه في قبره منها شيئًا، وليس خير الزاد إطلاق اللسان في أعراض المسلمين، وإنما خير الزاد تقوى الله -تبارك وتعالى، فمن استطاع أن يتزود منه ويكثر، فعليه أن يبادر ما دام ذلك في وقت الإمكان.
وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي	التقوى مطالب بها الجميع، لكن خص أصحاب العقول الراجحة؛ لأنهم الذين يعرفون قدر ذلك وأثره، وهم الذين

الألْبَابِ	يمتثلون ويستجيبون، وينظرون إلى الغاية البعيدة، والمستقبل الحقيقي في الآخرة، فلا يتعجلون اللذات في هذه الدنيا، على حساب آخرتهم، فإن من النقص في عقل الإنسان أن يأخذ العاجل، ويترك الآجل، بدعوى أن الآخرة غيب، والدنيا شهادة، أما أصحاب العقول الراجحة يعلمون أن هذه الدنيا زائلة، وأن الآخرة باقية، فيعملون ويجدون ويجتهدون، من أجل تحصيل الجنة، ومرضاة الله -تبارك وتعالى.

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (200) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (202) }

"التفسير الإجمالي وترابط الآيات"

ولأن التزود من الأعمال الصالحة هو ديدن الحاج، فجاءت الآيات رفع لما يتوهمه العبد من البعد عن التزود المادي في هذا الموسم، فقال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ} أي ليس عليكم حرج في ابتغاء فضل الله بالتكسب بالتجارة في مواسم الحج وغيره، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب

وهذه الآية لها سبب نزول كما ذكر ابن عباس: أن كَانَتْ عُكَاظٌ، ومَجَنَّةُ، وذُو المَجَازِ، أسْوَاقًا في الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كانَ الإسْلَامُ، فَكَأنَّهُمْ تَأثَّمُوا فِيهِ، فَنَزَلَتْ: {ليسَ علَيْكُم جُنَاحٌ أنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَبِّكُمْ} [البقرة: 198] {فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} أي دفعتم من عرفات بعد غروب شمس اليوم التاسع إلى مزدلفة، فلتتوجهوا إلى المشعر

الحرام بمزدلفة ذاكرين الله تعالى بالتهليل والتكبير والتلبية.
كانوا إذا رجعوا من عرفات، ووصلوا إلى المشعر منى، يتذاكرون الأحساب والأنساب والآباء والأجداد، ونحو ذلك، ويتفاخرون فيهم، ويذكرون مآثرهم، فأمرهم -تبارك وتعالى- أن يشتغلوا بذكره، فهو المتفضل المنعم الهادي، وهو صاحب الآلاء المتعددة.
{وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ} أي: اذكروا الله تعالى ذكرًا كثيرًا كما منّ عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون، فهذه من أكبر النعم، التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم بالقلب واللسان.

{ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} أي: ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفا عندهم، وهو رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف، والسعي، والمبيت بـ "منى "ليالي التشريق وتكميل باقي المناسك.
ولما كانت الإفاضة تشمل آخر مناسك الحج أمر تعالى بالإستغفار فقال: { وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} فالاستغفار للخلل الواقع من العبد، في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة، ففي ذلك البعد عن العجب بالعمل.
فقد كان الحُمس، وهم قريش، ومن ولدت، يقفون عند حدود الحرم، ولا يخرجون إلى عرفة في اليوم التاسع من ذي الحجة، بزعمهم أنهم أهل الحرم، فلا يخرجون منه، ويخرج سائر الناس من الحجيج من قبائل العرب إلى عرفة، فيقفون بها يوم التاسع، ثم بعد ذلك يفيضون إلى مزدلفة وأما قريش فإنها تكون في مزدلفة، عند حد الحرم، ولا تقف في عرفة، فخاطبهم الله -تبارك وتعالى- بقوله:{ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ}.

لما أمر الله -تبارك وتعالى- الناس إذا أفاضوا من عرفة أن يذكروه هناك، عند المشعر الحرام، أرشدهم بعد ذلك إلى الإكثار من ذكره، وأن ذكر الله لايكون مقتصر لوقت دون وقت، بل يحرص الإنسان أن يتبع الطاعة بالطاعة، مع توجيههم فيما ينبغي عند السؤال والدعاء والطلب
فقال تعالى: { فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} أي فإذا أديتم الحج وأكملتم المناسك فاذكروا الله كما كنتم تذكرون آباءكم في الجاهلية بل اذكروه أكثر فهو المتفضل عليكم بهذه النعائم.
عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقِفُونَ فِي الْمَوْسِمِ فَيَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ: كَانَ أَبِي يُطْعِمُ وَيَحْمِلُ الحَمَالات وَيَحْمِلُ الدِّيَاتِ . لَيْسَ لَهُمْ ذِكْرٌ غَيْرُ فِعَالِ آبَائِهِمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾

وجاء عن عطاء -رحمه الله- يقول: هذا كقول الصبي: أبه، أمه، يعني حينما يلهج الصغير الطفل باسم أبيه، واسم أمه، فهو يردد ذلك على لسانه، من غير أن يكل، أو يمل، فكما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم الذين لا همة لهم إلا هذه الدنيا، وما فيها من الحطام الفاني، فقال: { فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ } أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته من صحة ومال وولد، ونحو ذلك، وليس له في الآخرة من نصيب، لرغبته عنها، ولأنه لا يطلبها، ولا يعمل من أجلها، ولا يرجوها، وقصر همته على الدنيا

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ قَوْمٌ مِنَ الْأَعْرَابِ يَجِيئُونَ إِلَى الْمَوْقِفِ، فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ عَامَ غَيْثٍ وَعَامَ خصْب وَعَامَ وَلَادٍ حَسَنٍ. لَا يَذْكُرُونَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾.

والصنف الثاني { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} أي ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنيء واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقر به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك، من المطالب المحبوبة والمباحة، وحسنة الآخرة، هي السلامة من العقوبات، في القبر، والموقف، والنار، وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء، أجمع دعاء وأكمله، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء به، والحث عليه، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: "اللَّهم ربَّنا، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ".

{ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا } أي كل من هؤلاء وهؤلاء، لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم، وهماتهم ونياتهم، جزاء دائرا بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه .

{وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} فهو يحصي أعمال العباد، ويجازيهم عليها.